

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 58

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

المبحث: سورة لقمان

التاريخ: 26\04\2022 م

كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

ما زال الحديث عن الآية قبل الأخيرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

وكنا قد توقفنا حول الربط السياقي بين هذه الآية وما تقدم عليها من آيات. والوقف في السياقية الأولى كانت بنحو التلخيص ترجع إلى أن الآية السابقة ذكرت أمراً مهولاً دنيوياً أدت إلى رجوع الإنسان إلى فطرته ودعا الله مخلصاً له الدين، فيريد في هذه الآية أن يذكر أمراً مهولاً أخروياً لا يقاس به هول الدنيا؛ ليرجع الإنسان أكثر وباختياره إلى فطرته، فيعبد الله تبارك وتعالى مخلصاً له الدين.

الوقف في السياقية الثانية: في الواقع باعتبار أننا قد أصبحنا في خاتمة سورة لقمان، وكما لاحظنا من أول السورة إلى ما قبل هذه الآية، حتى في قصة لقمان مع ابنه كان هناك دعوى رئيسية في هذه السورة، أنه من خلال التأمل في خلق الله وآياته نصل إلى التوحيد في الخالقية والتوحيد في الربوبية، هذا كان الموضوع الأساسي في سورة لقمان أو قل المحور الرئيسي.

فكأنه الآن يريد أن يقول: إن كل هذه البراهين وكل هذه الآيات الباهرة ابتداء من بداية السورة وإلى وقتنا الحالي، مثلاً: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10)﴾ هذا خلق الله فأروني ما ذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴿إلى آخر الآيات، وأيضاً على نحو الإجمال الذي يدل على أنه لا منتهى لآياته ولبراهينه، جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لا يستطيعون لو مددتكم الأشجار بالأقلام والبحار بالمداد لما استطعتم أن تحصروا آيات الله، الآن يأتي السؤال: كل

هذا لأجل ماذا؟ فجاءت هذه الآية المباركة، أنه كل هذه الدلائل نقدمها لبني البشر حتى يسيروا على منهج ذلك الخالق والمدبر ويخافوا ويحذروا من يوم الجزاء الأكبر، هذه وقفة ثانية مع تمام السورة، فكأن كل المحور المتقدم في خدمة الآيتين المتبقيتين من هذه السورة.

إذن في تبارك وتعالى في المقطع الأول من هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ صار واضحاً.

ثم يقول: ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ معنى هذا المقطع الثاني واضح لكل ناطق في اللغة العربية، لكن اسمحو لي هنا أقف عند إعجاز بلاغي، في في جانب الوالد قال: ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ عبر بالفعل يجزي، الذي يدل على الحدوث، في جانب الابن قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ عبر بالاسم جاز. ففي جانب الأب فعل، وفي جانب الابن اسم.

من لطائف ما أشار إليه الجرجاني في دلائل الإعجاز التفريق بين الفعل والاسم، فرق بين قولك: زيد يطول، وزيد طويل. فرق بين قولك: وكلبهم يبسط ذراعيه وبين قولك ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾¹.

الفعل يدل على حدوث شيء بينما الاسم يدل على ثبوته، هذه من جهة، حتى نفهم هذه الآية على حقيقتها لا بد أن نلتفت إلى هذا المثل التالي: في بعض الأحيان إذا صدر فعل من شخص لا عيب فيه، ولكن إذا صار مهنة له يكون عيباً، مثلاً: الملك لا يصلح أن يكون حائكاً، لكن لو حاك يوماً لما عدَّ عيباً، والفقيه لا يصلح أن يكون تاجراً، أي يتصف بهذه المهنة، لكن لو تاجر يوماً لا يكون عيباً، وهذه دأب علمائنا في بعض الأحيان عندما يحتاجون كانوا يعملون، لكن بحيث لا تنطبق عليه الحرفة والمهنة والصناعة.

هنا عندنا علاقة أب بابن، وعندنا علاقة ابن بأب، في علاقة الأب بالابن قال: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ وفي علاقة الابن بالأب قال: ﴿هُوَ جَازٍ﴾ الابن باعتبار أنه وما يملك لأبيه هذه صفته هذه حرفته، أما الأب باعتبار تفله على الابن، فهذه ليست حرفته، فعبّر بالفعل وهنا عبر بالاسم.

فإذن في هذا المقطع الثاني يقول تبارك وتعالى: ﴿وَآخِشُوا﴾ ما زال الخطاب لـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

﴿وَآخِشُوا يَوْمًا﴾ ما هي صفة هذا اليوم؟ صفته أنه ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لا الأب ينفع الابن ولا الابن يكون نافعاً للأب.

في تلك السفينة التي تغرق، تلاحظ في كثير من الأحيان في الوقائع التي شاهداها أحدهما يضحى بالآخر، أحدهما يساعد الآخر على حسابه، أما في هول يوم القيامة في ذلك الفرع الأكبر لا أحد ينفع أحد، ولا أحد يقدم على مساعدة أحد.

المقطع الثالث: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ المقصود بوعد الله الإشارة إلى المعنى المتصيد من قوله: ﴿وَآخِشُوا يَوْمًا﴾ أي: هناك يوم الله سبحانه وتعالى وعد به الناس، فهنا عليك أيها الإنسان أن تلتفت، لا تقول ذلك الفرع الدنيوي فعلي؛ لأنه إما أنا وقعت فيه وإما رأيته أو سمعته، أما ذلك الفرع الأكبر هو وعد قد يحصل وقد لا يحصل، يقول: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ثابت، الله لا يخلف الميعاد.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ إذن المشكلة ليست في وقوع ذلك اليوم، والإنسان يعرف ذلك، وإنما المشكلة

إني بليت بأربع ما سلطوا إلا لأجل شقاوتي وعنائتي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي²

المشكلة لا أنك لا تعرف بأن هذا الوعد سوف يحصل، المشكلة: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فلا توقعكم هذه الحياة الدنيا بزخارفها وبهجتها في الغفلة، أوقعني في غرتي، أي: في غفلتي، فلا توقعكم هذه الأمور في الغفلة، وحينئذ لا تلتفتوا إلى ذلك اليوم ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ فلا يخدعكم عن هذا اليوم الذي وعد الله به تبارك وتعالى خداع الدنيا، خداع إبليس، خداع النفس؛ لأن الله لا يخلف الميعاد.

² كما في الشعر المنسوب إلى ابن فهد الإحساني، غير ابن فهد الحلبي، وكان معاصراً له، ووجدت الشر في الانترنت منسوب لملك بن دينار، وي كالتالي: تروى هذه القصيدة أن مالك بن دينار كان ماراً في السوق فرأى هناك بشخص يبيع التين فاشتتهت نفسه بعضاً منه، ولم يكن معه ثمنه فطلب من بائع التين أن يعطيه بعضاً منه على أن يؤديه ثمنه في وقت لاحق فرفض البائع. وكان مالك بن دينار يرتدي حذاءً جديداً فعرض على البائع أن يرهنه عنده مقابل أن يعطيه بعضاً من التين وأن يأخذ الحذاء عندما يؤديه ثمن التين فرفض البائع، وعندما فقد مالك بن دينار الأمل في أن يأخذ التين انصرف من عند البائع. وبعدها غادر مالك بن دينار من عند البائع أقبل الناس على البائع وأخبروه بأن الذي كان يريد شراء التين من عنده بالدين هو مالك بن دينار، وعندما علم البائع أنه مالك قام بإرسال غلاماً عنده ومعه عربة التين كاملة لعند مالك، وقال له: إن أقتعته بأن يأخذ العربة جعلتك حر لوجه الله تعالى. فذهب الغلام لعند مالك وكان مصمماً على أن يبذل ما فيه جهده لكي يفتع مالك بأن يقلل أن يأخذ عربة التين كلها لكي يصبح حراً، وعندما وصل لعند مالك قال له بأن سيده أرسله بعربة التين كاملة له، فقال له مالك: اذهب لعند سيده وأخبره بأن مالك بن دينار لا يأكل التين بالدين وأنتي قد حرمت على نفسي أكل التين حتى يوم مماتي. فقال له غلام البائع: يا سيدي أرجوك أن تأخذها فإن أخذتها عتقني سيدي، فقال له مالك بن دينار: إذا كان في هذه العربة عتقك فإن فيها عبوديتي (لأنه رأى أن شهوته إلى التين أذلته وأن بطنه أهانه ولم يرضى ذلك لنفسه فقام بتأديب نفسه وذلك بمنعها عن أكل التين لكي يهذبها)